جيش الخلاص المصرى

للأستاذ عماد الدين عبد الحميد

المحقق القضائى بالآثار

فى مدرج كلية الطب بالقاهرة ، وبدعوة من مدرسة الخدمة الاجتماعية فى مناسبة افتتاح هذه المدرسة لسنتها الدراسية الجديدة ، وقف رجل مسئول من أصحاب السلطان ، يعرض برنامجا للإصلاح الاجتماعى فى مصر، هذا الرجل هو صاحب المعالى الأستاذ عبد الحميد عبد الحق وزير الشؤون الاجتماعية .

كان المحاضر يبدو مرتجلا فى كلمته ، لكنه بدا غير مرتجل فى تفكيره ، وهذه نقطة جوهرية ، أو هى صخرة متينة من صخور الأساس ، لمن يريد بحق أن يقيم إصلاحا اجتماعيا ثابتا مطردا فى هذا البلد .

آفة الإصلاح الأولى فى بلادنا الارتجال . يقوم الإصلاح عندنا على فكرة عابرة ، فيتغير ويتبدل ثم سرعان ما يذهب ويزول ، بفكرة عابرة كذلك ، ولذا تأخرنا كثيرا فى الوصول إلى غاية ما من الغايات ، لأن الوسائل عندنا كانت دائما مرتجلة ، فنعود بادئين بعد أن نكون قد أشرفنا على الوصول ، ذلك لأن تفكيرنا ، تقريرنا وتنفيذنا كان دائما — كما أقول — بطريق الارتجال ! .

لنا إذا أن نطرب ، حين نرى فى مركز صاحب السلطان رجلا له برامج ... ويطربنا أكثر أن نرى هذه البرامج — وقد فرغ من إقرار صلاحيتها — تأخذ سبيلها العاجل إلى التنفيذ ، على أسس رسمية نرجو أن تكون ثابتة مع الأيام .

تكلم معالى الوزير فى موضوع الخدمة الاجتماعية فى مصر ، فشرحها شرحا وافيا ، ونادى بضرورة الإكثار من إنشاء مدارسها . فكان طبيعيا أن يقابل هذا الكلام بكثير من الحماسة ، وهو صاحب الأمر فى العمل رسميا لتنفيذ هذا الذى ينادى معاليه به ، وهو القادر على تنفيذه لو أن لدى وزارته من الوسائل المادية ما يجعلها مستطيعة تنفيذ هذا الذى يدعو معاليه إليه ، ومن حق هذه الوزارة أن تمكن من هذه الوسائل ، تحقيقا للغرض الأساسى من إنشائها .

لكن لم أطرب لرأى معاليه فى ضرورة الإكثار من إنشاء مدارس الخدمة الاجتماعية ، بقدر ما طربت لدعوته إلى تدريس العلوم الاجتماعية فى المدارس ، وربما كان هذا لأن هذا الطريق هو أقرب الطرق إلى خلق المجتمع المصرى السليم ، خلقا أقرب إلى الكمال .

والإصلاح الاجتماعى يلزم أن يهيأ له الرأى العام بكل الوسائل ، وأن يوجه فيه وجهة واحدة يلتقى فيها بتشريع اجتماعى قائم على عدالة اجتماعية منظمة . تشير هذه العدالة بالأخذ بالضرائب المتدرجة تدرجا معقولا ومناسبا ، وبإعفاء الضروريات من الضرائب غير المباشرة وبالعمل على انتعاش الصناعة الوطنية لتكون موردا إلى جانب المورد الزراعى . وإقرار مايتطلبه هذا الإنتعاش من شتى النظم المالية والتيسرات المادية التى تشجع الوطنيين على أن يتجهوا بجهودهم وأموالهم إلى ميدان العمل الصناعى ، والتى تمهد لهذه الصناعة الوطنية سبيلا صالحة تسير فيها آمنة مطمئنة بين شتى عوامل المضاربات الاقتصادية الأجنبية ، حتى تستطيع أن تقف أخيرا على قدم ثابتة بين غيرها من الصناعات ، محمية بجودتها وبأسعارها المعقولة وبوفرة انتاجها ، ومحمية مع هذا بنظم رسمية اقتصادية ، تقوم هذه النظم على أساس إحياء هذه الصناعات وحمايتها ، ومحمية أيضا قبل كل شىء بروح العزم والإقدام المستلهمة من تثقيف اجتماعى عام يشمل الوطن المصرى جميعا ، ويمثل مركزا ممتازا فى برامج التعليم .

ولاجدال فى أن الخريجين فى مختلف المعاهد وشتى أدوار التعليم ، هم — كل فى حدود بيئته — الموجهون لتفكير الجماعات وأذهان الجماهير ، ففى تنشئة هؤلاء ثقافيا تنشئة اجتماعية سليمة توجيه طيب لجيل الحاضر ، وتنشئة سليمة للأجيال المتتابعة .

وتحقيق هذا الذى يدعو إليه معالى الوزير يقتضى تحقيق مادعا إليه أولا من ضرورة العمل على الإكثار من المدارس الاجتماعية فى مصر . حتى تستطيع هذه المدارس أن تخرج للبلاد حاجتها من الاصلاحيين الاجتماعيين ، اللازمين لمشروعات كمشروع الوحدات الاجتماعية وغيره من مشروعات المؤسسات الاجتماعية واللازمين أيضا لتدريس العلوم الاجتماعية فى مختلف المدارس . وهذا يتطلب أن يكون لدى وزارة الشؤون الاجتماعية من الوسائل المادية مايمكنها من تحقيق هذا . ومن حقها أن تكون مالكة لما يلزمها من هذه الوسائل .

لكن تحقيق ما يدعو اليه معاليه من نشر الثقافة الاجتماعية فى جميع معاهد التعليم يمكن أن يجىء كذلك بطريقة لا أقول إنها كافية وحدها ، ولكن أقول إنها مساعدة وإنها لازمة ، هذه الطريقة هى أن ينظر بالمنظار الاجتماعى إلى برامج الدراسة فى جميع المعاهد وشتى مراحل التعليم ، وأن تعدل هذه البرامج فى كل مايمكن أن تعدل فيه ، حتى تتفق كل الاتفاق ، والصورة الاجتماعية المرغوب فى الوصول بمصر اليها .

وأما كيف ينظر إلى هذه البرامج بالمنظار الاجتماعى ، وكيف تعدل بحيث تكون كذلك فلعله أمر لا يغيب عن أذهان المسؤلين .

وينادى معاليه بأن تقوم هذه العدالة الاجتماعية أيضا على أساس إصلاح الأراضى البور البالغة مساحتها نحو ثلاثة ملايين من الأفدنة ، حتى يجد فيها العديدون رزقا حلالا .

كما نادى بضرورة إيجاد اختصاصيين اجتماعيين فى جميع أنحاء البلاد وبضرورة الانتفاع فى ميدان الإصلاح الاجتماعى بأئمة المساجد ومأذونى الشرع وشباب الأزهر ورجال الطرق الصوفية ، وبذلك يكون لاقتران الإرشاد الاجتماعى بقوة الدين تأثير عظيم ونتيجة مرضية .

وقال معاليه إنه إذا كان يرى أن الواجب يقضى بإنشاء أندية اجتماعية فى القرى والأحياء الوطنية ، فإنه يذكر أن هذا المشروع لا يكلف شيئا ماديا بل يتطلب مجهودا أدبيا فحسب. فالمدارس الالزامية فى القرى والقهاوى البلدية فى الأحياء الوطنية فى البنادر والمدن ، هى أمكنة هذه الأندية الاجتماعية ، ويجب أن يرسل إليها المرشدون الاجتماعيون .

وقد صحت عزيمة معاليه على تكليف بعض الأدباء بوضع قصص تاريخية ووطنية باللغة العامية تتلى فى القهاوى بالطريقة المعروفة فى تلاوة قصة الزير سالم وأبى زيد الهلالى .

وأبان معاليه فى كلمة له بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالاسكندرية أن خطته تقوم على الانتفاع بكل أداة ولو كان يعتورها نقص ، وقال إنه يرى إنشاء مدارس اجتماعية فى المديريات لتعليم مدرسى المدارس الالزامية فيها طرق الخدمة الاجتماعية ، ليكونوا مرشدين اجتماعيين فى وسعهم أن ينشروا الدعوة الاجتماعية فى أربعة آلاف قرية وفى خمسة وعشرين ألف عزبة ، وفى مقدورهم أن يوجهوا المجتمع المصرى وجهة جديدة .

هذا البرنامج الذى عرضه معالى الوزير فى كلمتيه بالقاهرة والاسكندرية ، يمكن أن يحقق عملا توجيها اجتماعيا جديدا فى وقت معقول. وبهذا يفضل هذا البرنامج كثيرا ما تسير عليه وزارة الشؤون الاجتماعية الآن من نظم عظيمة حقا — كما قال معاليه — لكنها بطيئة . فهى تعالج شؤون الفلاح — كمثال — عن طريق المراكز الاجتماعية ، وهذه تحتاج الى ميزانية كبيرة وجهود عظيمة . فان الوزارة لم يتيسر لها حتى الآن أن تنشئ أكثر من ثمانية مراكز يقوم كل منها بخدمة عشرة آلاف نسمة ؛ واذا سار الاصلاح فى هذا السبيل فحسب ، واذا ما استمر نصيب الاصلاح الاجتماعى فى ميزانية الدولة مثل ما هو عليه فحسب ، وجب أن تنقضى مئات السنين قبل التمكن من تعميم هذا التوجيه الجديد ، وقبل الوصول الى نتائج إصلاحية عملية شاملة .

كل هذه العوامل والوسائل التى أشار اليها معالى الوزير فى برنامجه يمكن أن تكون جيشا كبيرا من المصلحين فى مصر .

ومن المفيد كثيرا أن تشعر الدولة جنود هذا الجيش بأنهم يؤدون واجبا وطنيا عظيما ، وأنها تلمس قيمة هذا الواجب وتقدره، فترفع من مستواهم ماديا وأدبيا معا، وتطمئنهم على حالهم وأسراتهم، وأغلبهم ممن يشكون كل يوم قلة أجورهم والغبن اللاحق بهم ... وعندها يمكن أن يكون من هؤلاء فى مصر "جيش الخلاص" الذى أعلن معالى الوزير فكرته وبرنامجه والذى يرجو كل مخلص لو تم حشد هذا الجيش عاجلا، على أساس سليم، حتى تتجه الأمة — كتلة واحدة — الى التشريع الاجتماعى الذى نادى به معالى الوزير، والذى يقوم على أساس تحقيق العدالة الاجتماعية فى مصر .

إن تشكيل جيش الخلاص فى مصر ، اليوم ، فى هذه الصورة الرسمية المنظمة ، أفضل كثيرا من أن يشكل غدا فى غيرها من الصور ... ؟

عماد الدين عبد الحميد

آلة الرياسة سعة الصدر .
ازجر المسىء بثواب المحسن .
الطمع رق مؤبد .
من لم ينجه الصبر أهلكه الجزع .
من أشرف أعمال الكريم غفلته عما يعلم .
يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم .
اذا ازدحم الجواب خفى الصواب .
اذا كثرت المقدرة قلت الشهوة .
كن وصى نفسك فى مالك واعمل فيه ما تؤثر أن يعمل فيه من بعدك .